مشكلة الرأي العام

في الدولة الدمقراطيه

— ٣ —

بقلم الاستاذ عبد الجليل الطاهر

الرأي العام كموقف :

يميل علماء النفس ، وعلماء الاجتماع لوصف الرأي العام بكلمة موقف . ويعرف الاستاذ ميكايفر الموقف بالمصلحة ؛ ويقول هو حالة وعي نفسي والمصلحة هي موضع ذلك الوعي ٢٠ ويقول الاستاذ فارس بان شخصية الفرد ماهي إلا محاولة ناجحة لتنظيم المواقف (٢١) اما المواقف التي تكتسب لها التفوق والسيادة فتتكون من المواقف المتشابهة أي حدوث رد فعل عند الناس بصورة متشابهة ازاء موضوع من المواضيع . وتتأثر هذه المواقف بعاملين مهمين هما [٢] بجانب [١] التربية .

اما المواقف التي تنشاء الى حد ما بين وضعيات اجتماعية مشتركة ، تتوقف الى حدما على التلقين الذي تفرضه سيطرة المجموعة على اعضائها ولهذا فهي تستند على الاداب الاجتماعية وتؤيد بواسطتها وبذلك يصبح الرأي العام عبارة عن موقف من المواقف يتفوق بمختلف الوسائل كالصحف والاذاعة والاحزاب والمنظمات الأخرى . وعلى أثر ذلك نشأ علم نفس جديد يدعى بعلم نفس المواقف .

علم النفس الجماهيري والرأي العام :

هناك نظريتان متعارضتان :

الأولى تؤكد على ان حكم الانسان في الجماعة أكثر صوابا من حكمه لوحده — وهي النظرية التي راجع عنها أرسطو ونادت بها وجهة النظر الدينية ما اجتمعت أمتي على ضلال وهي إن أردنا وضفها بكلمة مختصرة فانها تعني الحكم الديمقراطي المبني على مشاركة الأكثرية وعلى المشورة في مختلف اوجه الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

(٢٠) ميكايفر ، المجتمع . (ترجمة الدكتور عبد المجيد عباس)

(٢١) فارس ؛ طبيعة الطبيعة البشرية . (بالانكليزية) .

الثانية القائلة بان الانسان في الجماهير الرعاع — الجماعة تخضع لكل الدوافع الأساسية (الغرائز) وانه يبتعد كل الابتعاد عن حكم العقل ونفاذ البصيرة ، ولهذا يكون حكم الجماعة باطلا غير متزن ٢٢ وهذه النظرية تقدم أهم الانتقادات العلمية لفكرة الرأي العام فتقول : إن حياة الكائنات البشرية خاضعة في جميع اعصرها ومراحلها الثقافية في الدرجة الأولى لسيطرة مجموعة كبيرة من الطرق الشعبية المتحدرة من اقدم الايام التي وجد فيها الجنس البشري ، وهذه الطرق الشعبية تشبه في طبيعتها طرق الحيوانات الأخرى وأنها خاضعة لسلطة الأداب التي لا يمكن مناقشتها لأنها محمية بأقل الناس تفكيراً ولانها ليست وليدة الاستنباط الذكي والتصميم البعيد النظر » (٢٣) ولهذا فالفرد ينجرف في التيار الجارف الصاخب دون ان يذهب على فرديته أو أن يعبر عما يجول في خاطره — فرأي الجماهير معناه الخضوع لسلطان العواطف الهائجة الثائرة ؛ دون الاعتبار باحكام العقل . وهكذا يصدق القول القائل بان الديمقراطية المستندة الى الرأي العام الجماهيري ماهي الا حكم الناس المتوسطين الاعتياديين الذين لا يمتازون بالذكاء والذين هم عبيد لشهواتهم وعواطفهم ، والذين أفق معرفتهم ضيق جداً ؛ وهنا لابد للانسان أن يتساءل ماهي الفضيلة السياسية للسيادة والتفوق العددي ؟ وماهي فضيلة زيادة الكم ؟

وما هو المعيار الذي يجعلنا نعتقد إن رأي [٥٥] من الشعب يمكن ان يعد أصلح وأعقل من ال ٤٥ ٪ الباقية ؟ أليس حكم الاكثرية معناه حكم القوة النفسانية ؟ ثم ما هو البرهان او السبب المعقول الذي يجعل لكل فرد قوة متساوية في القانون ؟

وهكذا تعتبر فكرة الرأي العام في الدولة الديمقراطية أمراً يحقق مسرات وافراح المتوسطين الاعتياديين فقط ولا ينجز خير الأقلية او الصفوة المختارة (٢٤) وتحاول الاكثرية المتفوقة عدداً ان تجلب الافراد ذوي القابليات والامكانيات ممتازة الى حظيرتها فتجعلها في مستواها . والرجل المتوسط كائن مقلد يحترم العادات ويخضع للتقاليد ؛ وغالى اعداء فكرة الرأي العام يقولهم إن اكثر الفترات نمادياً في الاصلاح القانوني كانت في وقت استمرت فيه

(٢٢) ولسن ؛ عناصر العلوم السياسية الحديثة (بالانكليزية)

(٢٣) ميكايفو ، الدولة الحديثة (بالانكليزية)

(٢٤) كوكر ؛ الفكر السياسي الحديث [بالانكليزية]

السلطة السياسية في ايدي الاباطرة الرومان والحكومات الملكية في فرنسا ، ويقول « توماس بين » : يبان لي حقاً ؛ إنه لو كان هنالك تمثيل واسع منذ أربعة قرون ؛ وكان عدد الناخبين كبيراً لما تم أي إصلاح ديني ؛ أو أي تغير في السلالات الحاكمة ، ولما حدثت إنقلابات في مكائن النسيج والحياكة ، وما كانت هناك ماكنة بخارية (٢٥) وأيد كوستاف لوبون الفكرة نفسها وقال : « لو كانت الدمقراطيات هي السائدة والمتفوقة منذ قرنين لما حدثت الاختراعات المتعددة مثل المكائن البخاريه والقاطرات ، ولكن كان من حسن حظ المدنية إن ازدهرت حين لم تكن للجماهير قوة او تأثير في مجرى الاكتشافات العظيمة في العلم والصناعة . » ويقول : « أما الشخصية الخاصة ـ نعني بها قدرة الشخص على مخالفة من يعايشهم واطراح نير الرأي العام والعرف ـ فموهبة من أندر المواهب ؛ وتجدها ظاهرية اكثر منها حقيقية . فالمفكر الذي يتقدم عصره كثيراً بما يدلي به ـ لا يصغي اليه أحد في حال حياته ؛ وليس المصير الطبيعي والمبدع الا ان يذهب شهيد تجديده وابتداعه . (٢٦)

وأشاع بعض علماء الاجتماع الفكرة القائلة إن جماعات الناس كثيراً ما يعملون في اساليب تختلف كل الاختلاف عن الأساليب والطرق المألوفة التي يتوسل ويعمل بها الافراد وقارنوا ذلك بالعناصر الكيماوية التي تكون باتحادها نوعاً جديداً من العناصر . فالعمل الجمعي يقضي على فكرة الفرد ، وتتغلب العاطفة فيه على إتزان العقل ويتحكم الهياج ويسود التهريج ـ وهكذا يصبح الرأي العام في الانظمة الديمقراطية خاطئاً لأنه يعتمد على الروح والتفكير الجماهيري ؛ وبالعكس حيث تتفوق الارستقراطية وتتحكم الاقلية الممتازة فان أقوى العقول واكثرها إتزانا هي التي تقدم الحماية ضد التأثيرات العاطفية للغوغاء .

(٢٥) توماس بين ، الحكومة الشعبية ، ص (٦٥-٦٦ و ٦٧-٩١) [بالانكليزية] .

(٢٦) كوكر ، الفكره السياسي الحديث [بالانكليزية] وراجع كتاب مقدمة الحضارات الاولى لكوستاف لوبون ، ص [١٢٠] .

نظرية الصفوة المختارة وفكرة الرأي العام :

والآن نريد ان نبين بايجاز آراء « فليفريد وباريتو » الايطالي الذي انتقد فكرة الرأي العام نقداً لاذعاً ؛ واكد انه في كل انواع الحكم سواء كان منها الملكي ؛ او الارستقراطي او الديمقراطي يتم عن طريق استعمال القوة من قبل بعض الطبقات من جهة ؛ وأخذ موافقة الشعب نسبياً من جهة أخرى ، ونسمى هذا النظام الصوري الذي يعبر فيه الشعب عن ارائه بنسبة محدودة « الديمقراطية » وما الديمقراطية في انكلترا وفرنسا وامريكا الا حكماً بلوطوقراطياً (حكم الاثرياء) وقد وضع « باريتو » نظرية معروفة باسم « دورة الصفوة المختارة » التي تقول بوجود صفوة يتنازعون بشتى الوسائل كالاحزاب والصحافة والاذاعة للوصول الى السلطة ـ فلا وجود لما يدعى « الرأي العام » ، وأيد الاستاذ « باريتو » عالم إسباني يسمى « موسكا » (٢٧) والاستاذ « لازوري » الذي يعرف السياسة بقوله المشهور : « علم السياسة يعني دراسة السلطة واصحاب النفوذ والتأثير » ويرد البروفسور « روبرت ميشيل » على فكرة الرأي العام بقوله ان الاحزاب هي المسيطرة على مايسمى الرأي العام في البلاد الديمقراطية ، ويسيطر على الاحزاب الزعيم الذي تربى وفق أساليب خاصة كانت تظهر عليه [الصفات النابولونية] التي تجعل من صاحبها رجلاً فوق الجماهير ؛ ينظر اليه الناس بكل تجلة واحترام ؛ ويصبح رأيه هو المتفوق السائد في الشؤون العامة ، أما الجماهير فهي عاطلة ليس لها أي أثر وينتهي الى القول القائل « إن الديمقراطية لا تستطيع الانفلات والانطلاق في قانون الحاجة التأريخية لحكم الصفوة المختارة والاقلية الحكمية العاقلة . وهكذا يصبح الرأي العام مجرد إدعاء فارغ وإن فكرة الشعب نفسه بنفسه ماهي الا من خلق الخيال والتصور وإن الجماهير غير المنظمة تسيطر عليها أقلية منظمة من الطغاة العسكريين او من رجال الاعمال الكبار او المصلحين الاجتماعيين الماهرين في تكييف افكار وعواطف الجماهير لتكون مصالح محدودة أو عقائد لبعض الفئات الصغيرة. [٢٨] ولكن الاستاذ (مريام) يرد على هؤلاء بقوله ان الديمقراطية

(٢٧) موسكا ، الطبقة الحاكمة [بالانكليزيه]

(٢٨) كوكر ؛ عناصر العلوم السياسية الحديثه [بالانكليزية]